اسماعيل باشا صبرى

شيخ شعراء العصر

١٨٥٤ — ١٩٢٣ م

بمناسبة مرور عشر سنوات على وفاته

— ٣ —

عرف القارىء مما نشرناه على صفحات هذه المجلة الزهراء عن إسماعيل باشا صبرى ، كيف أن ادباء العصر، قد اتخذوا منه زعيماً لهم ، أوعميداً لمدرسة الشعر الحديث ،وذلك لما تحققوه فى شعر الرجل من الروعة وروح التجديد، وفى نقده وملاحظاته من الدقة وأصالة الرأى؛ هذا ويلوح لى أن « صبرى » لم يكن أستاذاً لمشاهير أدباء جيله فحسب ، ولـكنه كان فوق ذلك أستاذاً لشهيرات أديبات العصر أيضاً .

فيؤخذ من حديث أذيع لنابغة الشرق الآنسة مى ، أن من أهم البواعث التى أثرت فى مجرى حياتها : تلك الاجتماعات الأدبية الراقية ، التى كانت تنعقد فى صالونها فى كل يوم ثلاثاء برئاسة إسماعيل صبرى . وقد قالت هذه الأديبة العظيمة الفذة : إنها اقتبست تهذيبها العربى مما كان يدور فى الصالون من البحوث الطريفة الشائقة باللغة العربية الفصيحة .

وإنى أحفظ لشاعرنا أغرودة من الشعر العاطفى الرقيـق ، يحن فيها إلى تلك الاجتماعات الثلاثائية ، والتى كان يرأسها بدار « مى » ! ؛ كما يحن الطائر الصادى إلى غدير الماء ، وهذه هى الأغرودة :

روحى على بعض دور الحى حائمة كظامىء الطير تواقاً إلى الماء !
إن لم أمتع «بمىّ» ناظرىّ غداً أنـكرت صبحك يا يوم الثلاثاء !

حفظت وأنا يافع هذين البيتين ، يتخللهما تشطير بديع محكم، وقد عثرت عليهما منشورين بمجلة « سركيس » ، بيد أن الذاكرة ـ قاتلها الله ـ قد خانتنى الآن فى حفظ اسم ذلك الأديب السورى صاحب هذا التشطير :

« روحى على بعض دور الحى حائمة » ترتاد موضع أحلامى وأهوائى
دار لميّـة أنويهـا وأطلبهـا « كظامىء الطير تواقاً إلى الماء »
« إن لم أمتع بمى ناظرى غداً » أو لم تمتع أغاريدى بإصغاء

أنكرت يومى بل أنكرت ليلى بل «أنكرت صبحك يايوم الثلاثاء»!

ولقد كان لشيخ الشعراء ولع بالموسيقى شديد ؛ جعله يهتم بترقيتها، ويسعى لتهذيب الأناشيد، وله مقاطيع وأدوار عدة بالعامية والفصيحة، وضعها خصيصاً للتلحين، وهو المؤلف لهذا الدور البلدى لأحد الموقعين على نغمات العود :

قدك أمير الأغصان من غير مكابر
وورد خدك سلطان على الأزاهر
دا الحب كله أشجان ياقلب حاذر
والصد ويا الهجران جزا المخاطر

إلى آخر الدور :

وإنى سأعرض على القارىء أدواراً من أغانيه الفصيحة مع مختاراته فى ذيل المقال، ولا شك فى أنها ستذهب بخيال القارىء إلى ما كان عليه الغناء العربى فى عهد العباسيين الزاهر!

وفى هذه النادرة الطريفة التالية، لبرهان قاطع على أن شاعرنا كان مرجعاً لشعراء الأغانى كما كان مرجعاً لسواهم.

قال الدكتور هيكل : «روى لى أحمد شوقى بك حادثة فى غاية اللطف، تلك أنه كان يوماً عند «صبرى» وهو يشغل منصب النائب العمومى، وكانت مصر تموج أفكار أهلها بحادث سياسى وقع فيها، وفيما هما جالسان يتحادثان ؛ دخل حاجب ومعه مظروف حكومى كبير فقطع ذلك حديثهما، وانتظرا أن يجدا فيه إشارة إلى ذلك الحادث السياسى، وما يجب اتخاذه من الاجراءات بإزائه، فلما فض صبرى باشا المظروف وقرأ ما بداخله هز رأسه مبتسماً!! ذلك أن على باشا شريف رئيس مجلس الشورى يومئذ، قد بعث فى هذا المظروف «بدور غنائى» وهو يطلب إلى النائب العام إصلاحه».

«ولهذه المناسبة قص صبرى لشوقى حادثاً وقع فى قرطبة حين كانت الدولة الإسلامية على وشك الزوال منها، وكانت طرقها تجرى دماً لاقتتال الناس فيها ؛ ذلك أن فتاة أطلت من نافذتها منادية صديقة لها فى نافذة مقابلة، تطلب إليها وتراً تصلح به عودها!

وكذلك يطلب رئيس مجلس الشورى إلى النائب العام، أن يصلح له دوراً غنائياً فى حين أن البلاد المصرية تموج بحادث سياسى لاتعرف نتائجه!.»

يجمل بى هنا أن أكتفى بما دونته من تاريخ حياة الرجل باختصار، وبما سقته من مستطرف نوادره التى تدل على مكانته المحترمة الملحوظة بين أدباء العصر، والمزايا الجمة التى تفرد بها، وهأنذا أمهد لما سأختتم به موضعى من مختارات الشاعر. لقد نظم شاعرنا فى مختلف المواضيع كالمدح والرثاء والغزل والحكم والفلسفة حتى الفكاهة، وكان موفقاً فى كل مانظم فيه بنوع

عام ، ولكنه قد وفق كل التوفيق، بنوع خاص ، فيما نظم من الشعر الغنائى والغزل الوجدانى.

ولعل السبب فى ذلك ، هو شدة حب الشاعر المرأة وتقديسه إياها ، وشاعرنا لم يتصبب بامرأة معروفة بالذات، ولم يعشق عشقاً أثيماً داعراً كما كان يعشق عمر بن أبى ربيعة وبشار بن برد ، وأضرابهما من الشعراء الشهوانيين، حاشا! بل كان يحب المرأة من حيث هى امرأة ، أو قل بعبارة ثانية إنه كان يحب الأنوثة حباً قدسياً أفلاطونياً عنيفاً عفيفاً ! !

« ويقول أحد الأساتذة : إن صبرى كان ينظر إلى المرأة نظر المصور الماهر إلى دمية جميلة يجد فى جمالها ظلاً يتروى فيه من هجير الحياة ! وينظم فيها المقاطيع الشعرية الرائعة ، شأن المثال الذى يفضل نحت الدمى الصغيرة على تشييد هرم جليل ! » .

وانظر إليه فى هذا البيت المبتكر المعنى ، كيف تخيل المرأة مخلوقاً ملائكياً روحانياً ، ليس للماء ولا للطين أى دخل فى تكوينه ، قال :

أنت روحانية لا تدعى أن هذا الحسن من طين وماء ! !

ونجد شوقى قد اقتبس هذا المعنى الجديد وصاغه فى بيته :

صونى جمالك عنا إننا بشر من التراب وهذا الحسن روحانى

وأنت إذا رجعت إلى مطلع عينية شوقى التى جارى بها عينية الفيلسوف الرئيس ابن سينا وهو :

ضمى قناعك ياسعاد أو ارفعى هذى المحاسن ماخلقن لبرقع

لوجدت أن شوقى قد أخذ هذا المعنى أيضاً من قول أستاذه صبرى حيث قال :

واسفرى تلك حلى ماخلقت لتوارى بلثام أو خباء

ولا غرو فشوقى له حسناته فى تقليد من كان معجباً بهم من الشعراء الذين تقدموه وعاصروه.

ونلاحظ أن صبرى نفسه — فى أيام شبابه — كان مقلداً ، يجرى وراء هذا وذاك من فطاحل الشعراء الأسبقين ، يقلدهم ويستعيد طريف معانيهم ، ولاسيما البحترى الذى كان يعجب به ويستظهر ديوانه عن ظهر قلب ، ولكنه بعد أن خلع عنه رداء الأربعين ، امتلأ شعره بروح تجديدية محسوسة ، تطالعك من خلال ألفاظه الرائعة ودقيق معانيه ، ولكأنى به كان يقول مع القائل :

سئمت كل قديم عرفته فى حياتى
إن كان عندك شىء من الجديد فهات

« وقد قال أحد الأدباء : وكأنى بصبرى قبل بلوغه سن الأربعين ، كان يفتح كتاب الوجود يتلمس فيه الطريقة البكر التى لم يفترعها شاعر قبله ، ولكنه لم يهد إليها إلا بعد أن حال لون النهار وكان مساء ، فجاء شعره كالشفق المذهب يلمع نوره فى أفق الحياة عند الغروب ! ! » .

وشعر صبرى على تنوع موضوعاته يتسم بسمات الرقة، ولا أقصد تلك الرقة اللينة المائعة

التى تولد فى النفس عوامل التراخى والاستسلام ، كالتى يصطبغ بها شعر بعضهم من المتصوفة والزهاد ، والذين لا أمل لهم يسعون لتحقيقه فى هذه الحياة ؛ وإنما أقصد الرقة التى لها من جمالها قوة ومن روعتها تماسك ، الرقة التى تنبه أحاسيس النفس وتشحذها ، وتملأ فجوات القلب حباً وأملا وحياة ! الرقة التى تمثلها نسمات السحر المنعشة بخطراتها ، والزهرة بشذاها وحلو ابتسامتها ، والقمر ببهاء طلعته وصفاء نوره وتلألئه !

ولأعرج من هنا إلى حديقة أشعار شيخ شعرائنا ، لكى أنسق بها باقة من زهر الشعر أقدمها للقارىء وأنا ضمين بألا يعترض القارىء ، فى بيت ما ، رأى غامض ، أو كلمة نابية ، أو تشبيه جاف معقد أو معنى مبتذل ، بل سيجد القارىء فى هذه المختارات والمقتطفات ألفاظاً متجاوبة ، وروّياً موسيقياً مطرباً ، يسرى رنينه فى النفس كما يسرى النسيم البليل فى جسم المحرور.

وأظن أن ليس من الإنصاف أن أغفل ذكر تلك الكلمة البليغة الجامعة ، التى شرح فيها شاعر القطرين الطريقة التى يجرى عليها شيخ الشعراء فى نظم أشعاره ، قال مطران :

« أكثر ما ينظم للخطرة تخطر على باله ، من مثل حادثة يشهدها أو خبر ذى بال يسمعه أو كتاب يطالعه ، ولما كان لا ينظم للشهرة بل لمجاراة نفسه على ماتدعوه إليه ؛ فالغالب فى أمره أنه يقول الشعر متمشياً ، وربما قاله بحضرة صديق وهو مائل عنه بعنقه ، وله بين حين وحين أنة بمثل ما تنطق لفظة « إيه » مستطيلة ، ينظم المعنى الذى يعرض له فى بيتين عادة إلى أربعة إلى ستة ، أو قلما يزيد على هذا المقدار ، إلا حيث يقصد قصيدة وهو نادر ، شديد النقد لشعره ، كثير التعديل والتحويل فيه ، حتى إذا استقام لما يريده ذوقه من رقة اللفظ وفصاحة الأسلوب ، أهمله ثم نسيه ، وهكذا يمر الآن بعد الآن ، فيجيش الشعر فى صدره ، فيرسل بيته إطلاق زوجى الطائر فيذهبان فى الفضاء ، ضاربين من أشطرها بأجنحة ملتمعة ، شادين على توقيع العروض ، إلى أن يتواريا وينقطع نغمها من عالم النسيان ، ذلك هو الشعر للشعر » .

مختارات

قال من قصيدة دعاها تمثال جمال :

إن هذا الحسن كالماء الذى ... فيه للأنفس رى وشفاء
لاتزودى بعضنا عن ورده ... دون بعض واعدلى بين الظماء
أنت يم الحسن فيه ازدحمت ... سفن الآمال يزجيها الرجاء
أقبلى نستقبل الدنيا وما ... ضمنته من معدات الهناء
واسفرى تلك حلى ما خلقت ... لتوارى بلثام أو خباء
أنت روحانية لا تدعى ... أن هذا الحسن من طين وماء !
وانزعى عن جسمك الثوب بين ... للملا تكوين سكان السماء

وأرى الدنيـا جناحى ملك خلف تمثال مصوغ من ضياء !

نشرت هذه القصيدة الخالية اللفظ ، البديعة المعنى ، لأول مرة برمتها فى سنة ١٩٠١م، بالمجلة المصرية التى كان يقوم بإصدارها خليل مطران ، وبالنسبة لطرافة القصيدة وطلاوتها علق عليها يقول :

« كانت الغزليات قبل الآن ، فيها مايمس الآداب العمومية ، من ذكر القدود والنهود ، والضم والعناق، ورقة الخصر وكثافة الردف ، ولقد كان هذا من العام ، حتى فى قصائد المدح للملوك والأمراء ، وهذا مالا ترضاه الأذواق السليمة فى هذه الأيام ، وينكره علينا أدباء الغرب، وقد سئل سعادة المفضال إسماعيل باشا صبرى نظم أبيات تنقل إلى اللغة الفرنسية، ونجعل فى كتاب يؤلف الآن فى مختارات الشعر العربى قديمه وحديثه ، فجادت قريحته الوقادة بهذه الأبيات التى جاءت على الطريقة الصوفية، من حيث سمو الخيال ، ونزاهة المقصد ، وغرابة الوضع، ولعل هذه القصيدة أحسن ماجمع فيه بين الأسلوبين العربى والغربى فى نظم الشعر ».

ومن غزله الذى جاوز فيه حدود الإبداع ولم يسبقه إلى معناه شاعر ما ، قوله :

يا راحة القلب ياشغل الفؤاد صلى متما أنت فى الحالين دنياه
زينى الندى وسيلى فى جوانبه لطفاً يعم رعايا اللطف رياه
ريحانة أنت فى صحراء مجدبة من الرياحين حياناً بها الله !
إن غاب ساقى الطلا أوصد، لاحرج هذا جمالك يغنينا محياه !

ومن غنائياته السائرة :

اصبر فؤادى فما الذكرى بنافعة ولا بشافعة فى رد ماكانا
سلا الفؤاد الذى شاطرته زمناً حمل الصبابة فاخفق وحدك الآنا
هلا أخذت لهذا اليوم أهبته من قبل أن تصبح الأشواق أشجانا؟
لهفى عليك قضيت العمر مقتحما فى الوصل ناراً وفى الهجران نيرانا !

ومنها أيضاً هذه الأنشودة :

يا آسى الحى هل فتشت فى كبدى وهل تبينت داء فى زواياها ؟
أواه من حرق أودت بمعظمها ولم تزل تتمشى فى بقاياها !
يا شوق رفقاً بأضلاع عصفت بها فالقلب يخفق ذعراً فى حناياها !

وقال فى الحماسة عن لسان فرعون يخاطب الشعب ويستنهض همته :

لا القوم قومى ولا الأعوان أعوانى إذا ونى يوم تحصيل العلا وانى
ولست إن لم تؤيدنى فراعنة منكم بفرعون عالى العرش والشان
لا تقربوا النيل إن لم تعملوا عملا فماؤه العذب لم يخلق لكسلان
ردوا الحجرة كداً دون مورده أو فاطلبوا غيره ريا لظمآن
لا تتركوا مستحيلا فى استحالته حتى يميط لكم عن وجه إمكان

وكان أستاذ شعرائنا يسير فى يوم من أيام الصيف راجلا بضاحية الجيزة ، فمر فى طريقه بدوحة وارفة الظل، وجوقة من شاديات الطيور ، تتغنى على أفنانها وتتطارح الأناشيد وهى آمنة من حر الهاجرة الذى اصطلى هو به ،فأجاش هذا المشهد عاطفة الشعر فى داخله، فوقف يستظل بأغصان هذه الدوحة ، ويعاتبها عتاب شاعر رقيق حساس ، ويسأل عمن يعيره جناحى طائر صادح، لكى يعتلى الدوحة ويقضى سحابة العمر مترنماً ، كما هى عادة العنادل. قال :

عار عليك وهـذا الظل منتشر فتك الهجير بمنـلى فى نواحيـك
فمن معيرى جناحى طائر غرد كى أصرف العمر شدواً فى أعاليك؟ !

وقد ارتجل هذه الأبيات الآتية التى تسيل كلماتها دموعاً، يوم وفاة الطفل الوحيد لصديقه الشيخ على يوسف صاحب المؤيد المدعو عمراً :

يامالىء العين نوراً ، والفؤاد هوى، والبيت أنساً ، تمهل ، أيها القمر !
لاتخل أفقك يخلفك الظلام به والزم مكانك لايحلل به الكـدر
فى الحى قلبان باتا يانعيمهما وفيهما إذ قضيت النار تستعر
وأعـين أربع تبـكى عليـك أسى ومن بـكاء الثكالى السيل والمطر !
قد كنت ريحانة فى البيت واحدة يروح فيه ويغدو نفحها العطر
ماكان عيشك فى الأحياء مختصراً إلا كما عاش فى أكمامه الزهر !
فارحل تشيعك الأرواح جازعة فى ذمـة الله بعـد القبر ياعمر !

ونختار له هذه الأبيات من قصيدته المؤثرة فى رثاء بطرس باشا غالى :

تبـكى المروءات على بطرس ذاك الهمام الماجـد الأروع
فتشت ، لمـا لم أجد مقلتى كفوفاً ، عن الفضل ليبكى معى!
فقيل لى : قد سار فى إثره يوم دفناه ولم يرجع !
ياجرياً دمع الملا أبحراً أدركهم يامرقىء الأدمع
يانازلا بين وفود البلى آنستهم ياموحش الأربـع
عينىّ فيـك اليوم قبطيـة تروى الأسى عن مسلم موجع !
بهم من وجـد ومن لوعـة فى الجانب الأيسر من أضلعى !
يامن سقانى الجم من وده هـذا ودادى كله فاكرع !

وقال من قصيدة يمتدح بها صاحب السمو الأمير عمر طوسون باشا، بمناسبة إعاناته للجرحى الذين ابلوا فى الحرب التركية ضد البلقان :

لك الإمارة والأقوام مابرحت بكل عالى الذرا فى الكون تأتمر
لو لم ترثها لما ألقت أعنتها إلا إليك خـلال كلها غرر
يا ابن الأولى لو أطلوا من مضاجعهم يوماً عليك لقالوا: إيه ياعمر !

أعدت أيامهم فى مصر ثانية حتى توهم قوم أنهم نشروا !
وسرت سيرتهم حتى كأنهمو إذا خطرت بأرض مرة خطروا !
لله درك كم نبهت من همم تثنى على أهلها الآصال والبكر
وكم تعهدت جرحى من أسود وغى إن يكشر الدهر عن أحداثه كشروا !

ومن قوله المملوء بروح الحكمة والحقيقة :

غاض ماء الحياء من كل وجه فغدا كالح الجوانب قفراً
وتفشى العقوق فى الناس حتى كاد رد السلام يحسب برا !
تعب الفيلسوف فى الناس عصراً وتولى السرائر الدينُ عصرا !
والورى طارد إزاء طريد وعقاب يعى يطارد صقرا
عبر كلها الحياة ولكن أين من يفتح الكتاب ويقرا ؟

وهاك مايدل على وفاء الشاعر حتى للخائنين من أصحابه :

إذا خاننى خل قديم وعقنى ووّقت يوماً فى مقاتله سهمى
تعرض طيف الود بينى وبينه فكسر سهمى فانثنيت ولم أرم !

يزعم بعض الفلاسفة أن للدين لوناً يختلف عن لون الفلسفة كل الاختلاف ، بمعنى أنه إذا كان مثلا للدين لون أبيض ، فيكون للفلسفة لون أحمر ! وأنا أعتقد أن الانسان متى وفق فى مزج هذين اللونين، تولد هنالك لون آخر رائق يبهر النفس، وأستطيع أن أسمى هذا اللون بالاعتدال وعدم التطرف فى الرأى ؛ وهذا ماتمكن صبرى أن يفعله فى هذه المقطوعة الفريدة فى بابها ، التى جمع فيها بين شطط الآراء الفلسفية وروحانية الدين ، على أنى لا أزعم أن للرجل مذهباً خاصاً به فى الفلسفة كان يعمل له ويدعو الناس إليه ، إنما غاية ماهنالك أن هذه الأبيات تدل على مايكنه قلبه الشاعر الكبير من التعظيم لمبدع هذا الكون العظيم .

قال يناجى الله ويسأله فى ضراعة وابتهال :

يارب أين ترى تقام جهنم للظالمين غداً وللأشرار ؟
لم يبق عفوك فى السموات العلى والأرض شبراً خالياً للنار !
يارب أهلنى لفضلك واكفنى شطط العقول وفتنة الأفكار
ومر الوجود يشف عنك لكى أرى غضب اللطيف ورحمة الجبار !
ياعالم الأسرار حسبى محنة علمى بأنك عالم الأسرار
أخلق برحمتك التى تسع الورى ألا تضيق بأعظم الأوزار !

ومن فلسفياته أيضاً الأبيات الآتية ، التى يقف فيها بجانب فيلسوف المعرة «أبى العلاء» ويرجح كفة الموت الراجحة بالراحة على كفة الحياة التى لاتحتوى على شىء عدا التعب قال :

ان سئمت الحياة فارجع إلى الأرض تنم آمناً من الأوصاب !

تلك أم أحنى عليك من الآ م التى خلفتك للأنعاب !
لاتخف ، فالمات ليس بماح منك إلا ماتشتكى من عذاب
كل ميت باق وإن خالف العن وان مانص فى غضون الكتاب!
وحياة المرء اغتراب فإن ما ت فقد عاد سالما للتراب !

نهاية الكنار

وفى أواخر أعوامه أذبلت الشيخوخة ديباجة[1] هذا الكنار أو بالحرى «ملك الكنار»، وألم به داء عضال أخفت صوته وأهاض جناحيه، وجعله ضريح الوساد لايستطيع أن يغادر وكره، وهذا المرض هو داء الأزمة الصدرية، وكأنى به حين ازدياد وطأة الأزمة عليه يتلوى فى فراشه ألماً وهو يرجع قوله مهيباً بالموت :

ياموت هأنذا خذ ما أبقت الأسقام منى
بينى وبينك خطوة إن تخطها فرجت عنى

ويقول الأستاذ أنطون الجميل : « كان الجميع يرضون عن شعر صبرى إلا صبرى نفسه .... حتى كأنه يقول إن أجمل شعرى لايزال فى صدرى لم أتمكن من نظمه بعد»، ويقول الأستاذ أيضاً : « ماعدنا صبرى مرة فى أيام مرضه إلا وسألنا : هل من شعر جديد فى البلد ؟ وهكذا شأن كبار القواد، متى أحيلوا إلى الاستيداع يرتاحون إلى سماع أخبار المواقع التى يضع خططها ونظمها غيرهم » .

هذا وفى الحادى والعشرين من شهر مارس سنة ١٩٢٣ م ، امتدت يد الموت القاسية إلى قيثارة الأدب العصرى، فتناولتها وانتزعت منها ـ فى غير رحمة ولا إشفاق ـ وتراً حالى الرنين متنوع النغمات ، وهذا الوتر هو شيخ شعراء العصر ، إسماعيل باشا صبرى ، فلا غرو أن :

جزع الحمى لنعيه وبكاه شبان وشيب !

[أم درمان: سودان] المبارك ابراهيم

(المعرفة) اتفق وجود الأستاذ الهراوى وقت تصحيح القسم الأخير من هذا المقال، فلاحظ أن هذه العبارة غير متفقة والواقع. والحقيقة التى يعرفها من معاشرته للفقيد حتى آخر أيامه أنه استخف بكل شىء فى الحياة ، ومن بينها الشعر على قدرة منه عليه .

ونذكر بهذه المناسبة أن صهره الأستاذ محمد بك عزت المستشار بمحكمة الاستئناف قد جمع شعر الفقيد المشتت فى الصحف والأفواه، وهو الآن بعده للطبع .